فايز صياغ

استاذ علوم في الفلسفة

نداء الأعماق

نظرات في الإنسان والوجود

دار الفكر - بيروت
اغسطس ١٩٤٧

obeikandl.com

obeikandl.com

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

obeikandl.com

obeikandl.com

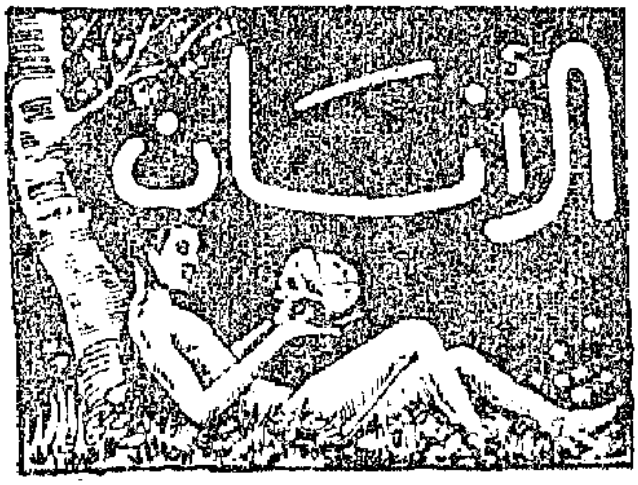

MAN

Placed on this isthmus of a middle state,
A being darkly wise and rudely great,
With too much knowledge for the sceptic side,
With too much weakness for the stoic's pride.
He hangs between; in doubt to act or rest,
In doubt to deem himself a god or beast;
In doubt his mind or body to prefer;
Born but to die, and reasoning but to err.

Created half to rise and half to fall,
Great lord of all things, yet a prey to all;
Sole judge of truth, in endless error hurled,
The glory, jest, and riddle of the world.

Pope, *Essay On Man.*

obeikandl.com

obeikandl.com

مقدمة

في الاسس الفلسفية لهذه النظرات

... وانصح القارىء ألّا
يقرأ هذه « المقدمة » إلّا
بعد ان يفرغ من قراءة
الكتاب بكامله ...

obeikandl.com

العصر الذي نعيش فيه عصر تناقض صاخب، وتنوّع متنافر، في المفاهيم والمقاييس، في القيم والمعايير، في المقولات والنظريات: وليست الخصائص العامة التي تميّز هذا العصر، سوى « الخطوط الكبرى » لنفسيته ومفاهيمه وقيمه.

وفي هذا العصر انصبابٌ على الانسان، وتمركزُ اهتمام حوله، ودأبٌ لبلوغ خير الانسان ورفاهيته، وسعيٌ لفهم الانسان ومعرفة اصوله وتاريخه واجتماعياته وتركيبه الجسدي والنفسي — حتى لكأنّ الانسان قد بات محور الانسان نفسه. ومنذ ان انقرضت القرون الوسطى الاوروبية، واطلت « النهضة الاوروبية »، وما تبعها من رقي في العلم (العلم المكتمل في التطبيق)، وما نجم عنها من نهضات صناعية وتكنيكية في الغرب، جعلت الغرب قدوةً ومسيطراً؛ وجرت الفلسفة في مجاريها « الانسانية »، منذ ثورة ديكارت، وانصبت على دراسة « الانسان » و « الاخلاق » و « المعرفة » (بدلاً من الوجود او اللاهوت)؛ وانبثقت من صميمها علوم تكاد ان تكون حديثة في التاريخ، كالانثروبولوجيا، وعلم النفس بسائر تشعباته، وعلوم الاجتماع والسياسة والاقتصاد؛ واستقرت الفنون حول الانسان كمحور، لا سيما « الرواية » : منذ ان اطل « العصر الحديث »، والانسان محور الانسان الاول.

بيد ان هذا التحوّل نحو انصباب الانسان على الانسان، قد اتخذ طابعاً مميزاً، له خطوطٌ كبرى عامة، كان من ثمارها القضاء على الانسان بملء نفسه، ومسخُهُ، وتحويله الى كائن « لا شخصي » في عالم « لاشخصي »: فقد طغت الاعتبارات التكنيّة « الخارجية » على الاعتبارات « الانسانية » « الداخلية »، وسيطرت « المجموعية »

« الفردية »، في تطاحنها الديالكتيكي، على « الشخصية ». واحتلت « الحضارة » محل « الثقافة » و « الكيان الشخصي »، وفُتر الايمان بالمطلق، واستوت بدلاً منه « نسبية » كالحة في القيم والمفاهيم (نسبية فردية، او جموعية)، جعلت «السفسطة الكيانية» لهذا العصر طابعاً عاماً : واصطبغ العلم بصبغة التطبيق العملي، وسُخّر وسيلة للتنظيم الاقتصادي والسياسي والتقدم الصناعي والتكنيّ والحضاريّ : ربما الانسان من وعيه او توقه او اهتمامه كل اهتمام بسوى حياته الارضية الحاضرة، وتقلصت معاني هذه الحياة حتى نبذت من احشائها كل منطويات التعالي عن اعتبارات التقدم الحضارية التكنية : وتبددت «وحدة» الانسان و«شمول» حياته و«انسجام» اهتماماته، فبرز في موضعها « تخصص » و « انصباب » على الجزئيات، وتحجّر لهذه الجزئيات في « دوائر » من العناية والتعمق مستقلة، جرد كلا من هذه الدوائر عن الاحريات، في اسسها ومقاييسها وغاياتها، وسلخها عن اطارها الانساني الشامل، وجعلها شؤوناً كاملة الاستقلال بعيدة التجريد — فاذا « بالانسان الاقتصادي » و « الانسان التكني » و « الانسان السياسي »، مسخ انسان بأرهب معنى !

العصر الحالي، اذن، قد جعل الانسان محوراً للانسان : لكنه نظر الى الانسان من زاوية تبدد فيها الانسان واستحال الى مسخ لنفسه . . . فكانت حياة هذا العصر، الفنية والشخصية والاجتماعية والمدنية؛ وكانت مؤسساته المتطاولة على عفويته، تخنقها و«تقولبها»، وتستعيض بانظمتها هي الجامدة على اصالة تدفق الحياة من معين نفسه الداخلية . !

ولا ريب في ان عصراً كهذا، يحتاج اكثر من اي عصر مضى، الى نظرة صحيحة للانسان: تنبثق عن ملء كيانه، لا عن تجريده وإفقاره– وتعترف بعلياته وكرامته، دون ان تقضي عليها وتنقضها بالابتعاد بها عن اطارها وينبوعها– وتنصب على الانسان فلا تقضي على الانسان من جراء وطأة انصبابها!

* * *

صرخت الآلهة في الوحي الدلفي، وردد سقراط صراخها، برسالة النور الى اليونان: «ايها الانسان: اعرف نفسك!». واما عصرنا فبحاجة الى الصرخة توقظه وتوجهه وتعيده الى نفسه: «ايها الانسان: اكتشف نفسك، وكن نفسك!».

الحاجة ماسة الى توجيه الانسان ليكتشف نفسه – نفسه الاصيلة الداخلية الخلاقة، نفسه «الشخصية»، المطمورة، وسط شباك «لا انسانية» و«لا شخصية» قد طفت وتعقدت خيوطها، فخنقت الانسان في وسطها... الحاجة ماسة لان يعيد الانسان اكتشاف نفسه وسط نفسه، ويميز بين نفسه الزائفة ونفسه الاصيلة.

الحاجة ماسة الى توجيه «جديد قديم» للانسان نحو الانسان، والى مفهوم للانسان «جديد قديم»– مفهوم «ازلي» لأنه حق، وحق لأنه ينبثق عن واقع الانسان.

الحاجة ماسة الى فهم صحيح للانسان كانسان، ككلٍّ شامل: متلون العناصر، متعدد القوى والنشاطات، لكنه واحد الذاتية، منسجم الانسانية، تستوي عناصره وقواه ونشاطاته، رغم تباينها، على صعيدها! الحاجة ماسة الى فهم صحيح للانسان: الغني في تعدد الوان نفسه، الغني في انسجام هذه الالوان – لا كتجريدات

obeikandi.com

وهميه، تنتصب مستقلةً، منسلخةً عن اطارها العام وعن اخواتها!

الحاجة ماسة الى اكتشاف الانسان في الانسان، بعد ان تبدد الانسان وبرز بدلاً منه المواطن او الكائن الاقتصادي او الاجتماعي، او العقل المحض او الشعور المحض او الغرائز المحضة!

الحاجة ماسة الى نظرة صحيحة للانسان، لا تجرّد الانسان عن اطار الوجود العام، الذي يستقر ضمنه، ومعه يتفاعل، ومن ضمن تفاعله معه يحقق نفسه: بل تشدد على هذا التفاعل، وتعيد الانسان بشكل حي الى اطار الوجود المتردد صداه في نفسه، لتتيح له تحقيق انسانيته دونما بتر او مسخ او عقم... ما الانسان دون الله، ينصب نفسه لنفسه صنماً، ويجعل من دولته او طبقة اقتصادياته الهاً؟ ما الانسان دون الروح، والحق والخير والجمال، ينهدّ على الحضارة التكنيّة، يصرف عمره في الاستزادة من دقتها، فتسخّره لمقتضياتها، وتدوسه عجلاتها، بدلاً من ان يسخرها وسيلة ليسهل على نفسه العودة الى نفسه؟ ما الانسان دون المحبة، الشاملة الفياضة — يمدّ ولاءه في رقعة من ارض او قبضة من ناس، ضمن جدار لا يتعداه الا بالكراهية والعداء والنقمة والحرب؟!

الحاجة ماسة الى اكتشاف العالم الداخلي، الذي فيه يقوم الانسان الصحيح، فيه تنشأ الاختيارات الروحية الاصيلة، فيه تبرز المحبة والايمان والبطولة والابداع، فيه الانفعالات والاحاسيس والشعور، فيه الوعي، فيه الحالات الكيانية الثرية التي تجعل منه انساناً — بدلاً من ان يضيع في نطاق خارجي «لا انساني»، تطاق من الاشكال والقوالب والانظمة الجامدة، الفاقدة الاصالة والعفوية...

الحاجة ماسة الى اكتشاف الكيان الشخصي: «الشخصية»

التي لا تنقرض ولا تذوب ولا تندمج، بل تنتصب كياناً ثابتاً مستقراً «الذاتيـة» و «الانويـة» حراً، مستقلاً بمصيره المصير: تنفتح على «الغير»، و «تفيض» على الغير، ولكنها كشخصية تنفتح وكشخصية تفيض، فلا تتبدد «عزلتها»، ولا يذهب ثراؤها، بل تزداد غنىً كشخصية في الانفتاح والفيض، وتزداد عزلةً في عطائها واخذها: «الشخصية»، تنطوي على اللهفة «للـوى» «للآخر»، كعنصر من صميم كيان ذاتيتها: تنطوي على اللهفة للفيض والعطاء، والاخذ والانفتاح، كعنصر من صميم عناصر عزلتها وشخصيتها! الشخصية الفذة الفريدة، لا تتساوى مع الغير في فذوذيتها!

الحاجة ماسة الى اكتشاف «المطلق» في القيم: لا نشوّهه «النسبية»، ولا يبدد قدسيةَ اطلاقيته تجليه في اوضاع مختلفة وباشكال مختلفة.

ان الحاجة ماسة الى اكتشاف هذا الانسان: «الشخص» في اعمق معاني شخصيته.

* * *

ولئن كانت الحاجه الى التشديد على «الشخص» تقوم في كل زاوية من زوايا حياة الانسان، فلعل الزاوية الاجتماعية ابعدها حاجة، واكثرها الى هذا التشديد افتقارا: اولاً، لأن الاجتماع، كعنصر ثابت من عناصر انسانية الانسان، يلازم هذه الانسانية، وينبثق عنها، ويتأثر بتوجيهها، ويؤثر فيها بتوجيهه. وثانياً، لان الاجتماع عرضة لأن ينطلق حتماً في اعتبارات «لا شخصية»، اعتبارات تنقض قيم «شخصية» وتطأها بفظاظة

وتحطم عزلتها وتقضي على حريتها . وثالثاً ، لان العصر الحالي قد بات عصراً اجتماعياً في المقام الاول ، فبات التشديد على انسانية الانسان ، بالتالي ، حرياً به ان يهتدىء ضمن الزاوية الاجتماعية .

* * *

ولما كنت قد قمت ، حتى الآن ، في تآليفي الاجتماعية الماضية ، بالاشارة الخاطفة الى هذه القيم الانسانية ، وبالتشديد على « الشخص » كغاية المجتمع وهدفه ، كمحجّم المفاسد الاجتماعية ، كوسيلة الاصلاح ، وكحاجة الامة الاولى - فقد بات لزاماً علي ان اقدم هذه النظرات الحالية لشرح مضمون « الانسان الشخص » في فهمي له ، حال فراغي من اختتام السلسلة الاجتماعية من تآليفي (راجع مقدمة « الطريق ») .

واني اقدمها ، لا نظاماً فلسفياً ولا بحثاً متسلسلاً ، بل نظرات خاطفة مقتضبة ، تحتوي في تأملين : اولها يتناول ثنائية الكرامة والشقاء في الانسان ، وثانيها يحلل عناصر الغنى والثراء في وجوده . اما « الدعوة » في الختام ، فامل في نشرها تناقضاً ومضمونها - وعذري ، في نشرها ، انها ليست « دعوة » بل « شهادة » و « تذكيراً » .

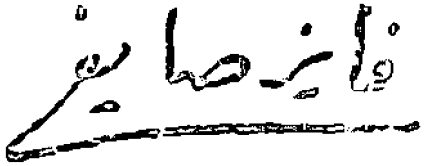

الباسون - ضهور الشوير

٢٢ اوغسطس ١٩٦٧

obeikandl.com

الإنسان

في الاعالي... وفي الشقاء

ما ارهب الانسان

عد الى نفسك ، ايها الانسان !
واكتشف نفسك : في الاعالي
وفي الشقاء !
وانطلق لتحقيق ملء وجودك !

obeikandl.com

في الأعالي...

— ١ —

هلّا وقفتَ، في خشوع المتعبد، تمتّع الطرف باليمّ وقد اتسع واتسع، عبر حدود الأفق؟ وبالآفاق وقد امتدت عبر اللانهاية؟ هلا راقبت الفلك باتساع ارجائه، وإحكام تركيبه، ومتانة ارتباطه؟ هلا رأيت نظام الكون في جلاله، والغزّية الكون في رهبتها؟ الا! فاعلم ان في نفسك من الاتساع، والعمق، والاغزّية، ما يحوّل الكون الى مسخ رهبةٍ وقزم جلال!

٥

اذا ما وقفت خاشعاً امام جلال الفلك، في تراصّ بنيانه، وإحكام تركيبه — فعد الى نفسك تجد ان في ضميرك، وإلزاميته الآمرة، وعناده الجريء، ووخزه المرير، جلالاً يهزأ بالقبة الزرقاء! وان هنيهةً من الحسّ بالمسؤولية، واعبائها، لأبلغُ سمواً من استمرار بنيان الافلاك مدى الزمان!

واذا وقفت تنصت الى الطبيعة، في اهازيج جمالها، وزغاريد

اجوائها، يبوح بها صمت ناطق رهيب — فعد الى نفسك، تجد ان في صمتك الزاخر بالاسرار، المستهزيء بإلحاح الناس في استنطاقه، لنطقاً ابلغ من الكلام والبواح !

واذا وقفت امام الجمال يتعرى، في زنبقة شاردة في حقل، او ازدحام الاشجار في غاب، او انسجام الالوان مدى النظر في الربيع — فعد الى نفسك، تجد ان الجمال الجمال هو في نفس انك تتذوق الجمال، وتُنقِذ الجمال من ان يُهدَر غيرَ وعيٍ في طبيعة عمياء !

واذا نظرت الى البركان يتفجر، فيقذف النار من جوفه، حمماً حمقاء مستبدة، تتسابق الى التدمير والافناء — او سمعت زمجرة الرعد، يدوي في غيظ حقود — او شاهدت الاعصار يتمزّق فيُمزّق، ويثور فيكتسح ويدمّر، وينطلق حيث يشاء بعنفوان القوة وتعسُّف الجبروت : — فعد الى نفسك، تجد ان في انفجار القبضة من الاحاسيس الحيّة الخافتة، قوةً تتمخض كالبركان الجبار، كفيلة بنسف تاريخ من الذل، وبناء امة من الامجاد !

واذا طربت لموسيقى الجداول، تترنم اذ تنساب غنوجاً، وتئد حرج عابثة بالحصى، مداعبة الحشائش الطرية في رفق، كما تداعب ايدي العذراء شعرها في وجه النسيم — فعد الى

obeikandi.com

نفسك، تجد ان الأماني، المدغدغة احلامك، من الموسيقى ما يهزأ بالناشيد الجدول وترنم العندليب !

واذا نظرت الى الطود، وفي ضخامته الكهرباء، وفي كهربائه التحدي — فعد الى نفسك، تجد ان في طموحك من الكهرباء ما يتحدى الطود ويهزأ به!

واذا ما وقفت، حائراً، امام اعجوبة النظام في الكون: نواميس تسيطر على الطبيعة، وتتبدّى في ترتيب بديع وتنظيم مستقر — فعد الى نفسك، تجد ان في ايمانك بنفسك، واطمئنانك، كما في لهفتك وقلقك، من الخصوبة والغنى، ما يعجز اطمئنانُ الطبيعة اللاواعي عن بلوغه او الاقتراب منه!

واذا وقفت، دهشاً، امام الغاز الطبيعة واسرارها — فعد الى نفسك، تجد فيها من العزم والارادة، من الحرية تتحدى الاقدار وتهزأ بعوامل القسر والإكراه، من الفذوذية في كينونتها، او الإبداع في خلقها، اسراراً تغوص وتغور في هوّة انى لأسرار الطبيعة ان تدنو منها؟! واذا ما وقفت تتأمل في استمرار الطبيعة عبر الزمان، عبر الفناء — فعد الى نفسك، تجد ان في كل لحظة من لحظات وجودك، تكون فيها انساناً، ازلاً يهزأ بالزمان! وان في وميض الهنيهة الملهمة، من الحب، او الايمان، في نفسك، فيضاً من الازلية يعجز الزمان كله عن ان

يستوعبه، او يحصره، او يحدّه في كمٍّ ومقدار!

واذا ما وقفت، شاكراً، امام الطبيعة السمحاء، تجود بالخيرات من جوف الارض — فعد الى نفسك، تجد ان فيها معيناً من العطاء، يتدفق سخياً بالخيرات، فلا ينضب ولا ينقطع!

واذا وقفت تتأمل في نقاء الزنبقة، تنتصب بضّةً صافية في وجه الشمس — فعد الى الانسان، تجد في قلب العذراء من الصفاء والطهارة، المكتملة بالاخلاص والتفاني، ما تخشع امامه الزنبقة في حياء! وإزاء بسمة الطفل، في براءة وسذاجة، تذبل الازاهير وتذوي!

واذا اذهلك تنوّع الموجودات، اجناساً وانواعاً، في هذا الكون الغني — فعد الى نفسك، تلقَ فيها تنوّعاً وتبايناً في العناصر والقوى، والنوازع والعوامل، المتشابكة المعقدة، تتضاءل ازاءه وفرةُ انواع الموجودات!

واذا وقفت امام معجزة الخلق في الطبيعة، تتوالد وتتكاثر وتنمو — فانظر الى نفسك، تكتشف ما تشارك فيه الله من خلقٍ وتوليد وإبداع!

واذا ما هالتك المعجزات في الطبيعة — تمرّدُ الاشياء على سُننها الجامدة ونواميسها المستبدّة — فعد الى نفسك تجد الحرية،

معجزة المعجزات في كيانك : الحرية التي تتبع مشيئتها، في انطلاق سائب، متى تشاء، وتنصاع طيّعةً مختارةً متى تشاء؛ الحرية التي تتمرد على الخير حين تهوى الشر — وللحرية ولعٌ بالشر احيانا — وتتمرد على الشر في روح خيّرة، عندما يضيء الخير كيانها: الحرية التي تتمرد على نفسها، فتستعبد نفسها، ذليلة، لقاء لقمة، حين تشاء؛ او تتشبث بنفسها، فتأبى التنازل عن كرامتها، وتعجز قوى الارض عن إذلالها وإخضاعها! الحرية، التي تنشد العبودية حرة، هرباً من اعباء نفسها — او تمتعاً بلذة العبودية: — ثم تنتفض على العبودية بقوة الرمق الباقي من نفسها في نفسها! الحرية التي تأبى ان تقاس بالمقاييس، او ان تخضع المؤثرات والعوامل؛ وتتجلى في كل لحظة بثوب جديد، لا تتوقعه انت، ولا تتوقعه هي، ولا يُحصَر في نطاق سوى نطاق الحرية الذي لا يُحصَر!

●

... اذا ما وقفت امام الطبيعة، في شتى مظاهرها ومزاياها، خاشعاً، شاكراً، ذهلاً: فعد الى نفسك، تجد في نفسك من المزايا، والجلال، والخير، والعطاء، والالغاز، ما يفوق الطبيعة بل يزدري بها! الانسان! ابن الطبيعة، بل فلذة من فلذات الطبيعة، بل عبدها: — وسيد الطبيعة، يتعالى

عنها في جلال كيانه، ويفوقها في منطويات نفسه، ويهزأ بها في ثمار خلقه وابداعه!

— ٢ —

واذا وقفت امام الله، في خشوع المتعبد؛ وجثوت امام الخيرات المنبثقة عن مشيئته؛ والنور المتلالئ من روحه؛ والمحبة المتدفقة عطفاً وغفراناً وعطاء من محض كيانه، والخالق المتعري في الطبيعة وفيك من ثمار قوته؛ والجلال المتبدي في تحنانه؛ والكبر، المزداد كبراً، في اتضاعه؛ والقوة الجبارة المتفتقة من فيض روحه:— اذا ما وقفت، انسانا امام الله، الا! فاعلم ان في تعبدك وخشوعك تقديراً للالوهة ينطوي بجد ذاته على بعض عناصر الالوهة؛... وان في توقك لله، ولِلقياه، جذوة من الله، فعالة في نفسك وثابة!.. وان في ايمانك بالله، واستسلامك الحر لمشيئته، فيضاً من الحرية هو قبس من حرية الله، يأبى الله نفسه، ويعجز لو شاء، عن إذلالها وقهرها؛... وان في قبولك الغفران من الله، وتقبلك العطاء، بروح العطاء والاتضاع، كبراً هو صدى للإله الجاثم في نفسك!... وان في لحظة

لقياك بالله، اكتمالاً لعناصر الالوهة المجوبة في كيانك، وتحقيقاً للالوهة الراقدة في صميم انسانيتك، ومشاركةً منك لله في قوته وقدرته، تجعل منك — وانت القزم على سفح الطود — سيداً للطود تأمره بان ينتقل الى البحر فينتقل صاغراً !

فانت، ايها الانسان — مخلوقَ الله بمحض نعمة الله، مستمدّ سموك فوق الطبيعة من فيض لقياك بالله — انت تشارك الله في الخلق والحب والعطاء، وتسمو بالله، الى انسانية فيك لا تهدأ إلاّ اذ تستقرّ في احضان الله، صورةً له ومثالاً !

— ٣ —

بازاء الطبيعة تقف، ايها الانسان، عبداً للطبيعة، متعالياً عنها، متفوقاً عليها، سيداً لها ! . . .

وبازاء الله تقف، ايها الانسان — يامخلوقَ الله الضعيف وليد النفخة من روحه، والكلمة من مشيئته — تقف مشاركاً لله في الخلق والابداع والمحبة والعطاء ! . . .

فعد الى نفسك، ايها الانسان، واكتشف ما في نفسك من

قوى ونوازع، وما في ضميرك من خير، وما في انسانيتك من حب وايمان وثقة وجلال، وما في وجودك من خصوبة وثراء! عد الى نفسك، وكن نفسك، بل، نفسك . . .

واني اقول لك : ان الانسان، متى ادرك انه انسان، فليس سوى القوة المستقرة في اعماق انسانيته — قوة الاتضاع — ما يستطيع انقاذه من شذوذ نشوة الاعتزاز وكبرياء الجلال!

obeikandl.com

... وفي الشقاء

- ١ -

... وهلّا وقفتَ تراقب المادّة الصمّاء البكماء، التافهة الوضيعة: فنظرت اليها انت بازدراء؟ عد الى نفسك، ايها الانسان، تجد فيها من الضعة والصِغَر ما يُجفِلك لدن المقارنة!

ففي حفنة التراب جمال لا يعيه التراب؛ وللوردة عبير لا تتذوقه الوردة؛ وللأفلاك جلال لا تخشع امامه الافلاك! ولكن اين هذا كله من جهل الانسان بنفسه، وبمزاياه الغنية السامية؟!

الطبيعة تجهل لانها لا تستطيع ان تعي: اما الانسان، اذ يجهل، فيجهل على الرغم من ان الوعي جزء من طبيعته!

الطبيعة التي لا تعي ذاتها، تظل هي هي، رغم افتقارها الى وعي ذاتها: اما الانسان الجاهل نفسه، ففي جهله انقراض لانسانيته، وفي افتقاره للوعي خفض من مقام إنسانيته التي الى وعيها هو مدعوّ!

obeikandl.com

وأيُّ مشهد آلمُ على النفس من مشهد الانسان، لا يدرك عمق مضمون انسانيته، ولا يُحيط بعناصر الثراء التي ينطوي عليها كيانه ؟

خيرٌ للانسان ان يكون فلذةً من الطبيعة، لا يفوقها ولا يسمو عليها — من ان يكون ذلك العقل النيّر، وتلك الارادة القديرة، وتلك الحرية الخلاّقة، وذلك الحب المعطي، وذلك الايمان القائم في صميم القلق، وتلك الثقة تحملها اجنحة الاطمئنان غنوجاً في اجواء التوتر والتناقض والشك : فلا يعي ايّ كائن هو، واية الوهة تحتويها احشاؤه !

خير للانسان ان يكون كمًّا ومقداراً في الحجم والمكان والزمان، وحسب — من ان تحيط نفسه بالازل، ويحقق في وجوده اللانهاية، ويتعالى عن اوضاعه وعن نفسه، ثم يهبط رتبةً، فيتبخر الازل في قبضة يديه، وتتلاشى اللانهاية من وعيه، وينتهي كمًّا حقيراً، يتلهى، وتتلهى به رواية الزمان، لحظةً من الزمان تافهة !

الانسان، في ما هو، في انسانيته، مهبط للوحي، ومقرّ لطاول الحق والخير والجمال، وحرية خلاّقة مبدعة، وعطاء سخي في الحب، إنه مهد ثراء لا ينضب، وخصوبة لا تذبل !.

والانسان، اذ يفقد اعتزازه بانسانيته، وتذوُّقه لثراء نفسه،

يتدنى الى وهاد ادنى من الطبيعة البكماء التي تبزغ خصوبة ثرائه من احشائها !

ان الانسان الذي لا يعي انه اكبر من حفنة الصفر التي تتسربل بها انسانيته، لأَصْغَرُ من صغرها : فحين يعتز الانسان بانسانيته، وينمي منطوياتها، يحقق عناصر الخصب فيها والثراء، وحين يفقد هذا الادراك، ونشوة الاعتزاز بما هو، يتدنى الى مرتبة اخفض من مرتبة المادة التي هو مدعو للتعالي عنها بما هو !

- ٣ -

وفي وهاد هذا الجهل بانسانيته، بل، ثرائها، يدور الانسان على نفسه دورة مفرغة : تنتهي فيما مأساة جهله، بتعاسة الفراغ وشقاء التفاهة !

في اعماق الانسان توق الى الكينونة، ونزوع للوجود ! انها صدى للقيم الجاثمة في نفسه، انها اللهفة الملازمة، في نفسه، توقه لان يكون نفسه ! ولولا هذا التوق، لما استطاع الانسان ان يحقق ملء وجوده.

وحين ينعدم الوعي بالقيم الاصيلة، وتتلاشى خصوبة

انسانية الانسان من نطاق ادراكه ووعيه، يحول ذلك التوق —ذلك التوق المتجه، في حالة الانسان السليم، نحو القيم الحقة — يحول ذلك التوق عينه جولته المفرغه، ليتشبث بالاعراض مطمحاً له دون الجوهر!

فاذا بالقشور له ملهى؛ واذا بالتوافه قيم؛ واذا بالانسان يتمرغ، في الحضيض، ينهش في الحقارات ليقتات؛ ويُقبل على الصغارة ليعلو، على ركامها، نحو كبرٍ مشوَّه!

وحين تنخفض بصيرة الانسان، وتتحول عن الآفاق البعيدة البعيدة — آفاق البطولة والقدسية والخلق والحب — لتنهدّ في عياء على الرقعة القريبة؛ وحين يحول الانسان نظره عن فيض الضياء المنبعث من نور آفاقه البعيدة، ليكتفي بتمييز الالوان والظلال على بصيص الشموع المحترقة وئيداً نحو الفناء؛ وحين تتقلص مطامحه وامانيه، فتحتضن ذراعاه الملموس لتعوّضا به عن الامل البعيد الذي تنشده النفس الاصيلة عبر مدى اللمس؛ وحين تتحول مقاييس العز والجلال، والمجد والمفاخر، الى قناعةٍ بالضئيل الضئيل من الجلال، وتنكُّرٍ للفخار: — حين يهبط الانسان، من ذروة انسانيته، في قمم الوجود النابض بالحياة، الزاخر بالقيم، الى وهادٍ يتيه فيها توقه بين التوافه، ويشبع فيها نهمه بالضئيل: — حينذاك، تنتهي الدورة، المبتدئة بجهله نفسه،

الى تنكره لأسمى ما في نفسه !

فاذا بالمال للانسان مطمع وغاية، يكدسه ركاماً يعتز بحجمها ويفاخر بضخامتها ... واذا بالجاه للانسان مقياس زائف، يقيس بالنسبة اليه قيمة نفسه : فيتقلص العار، في شعوره، من العار بينه وبين نفسه، وفي وجه ضميره، الى العار في ثرثرة الناس ! ويتدنى حسه بالكرامة، من فخر يعتز به وحيداً امام نفسه، الى اشكال الكرامة المشوهة يختال فيها امام الناس ! ... واذا باقدام الناس تزدحم نحو الملاهي، مصرفاً لفيض التوق المنبثق من نفوسهم في حالة الاصالة ... واذا بالحياة مسخُ حياة : تنازع على البقاء في سبيل البقـاء، ودورة رتيبة من العيش تقنع بتفاهة العيش !

— ٣ —

وفي مجال السعي نحو التوافه، ينتفض رمق الانسانية ، في ساعات ملهمة، وينتصب محاسباً غيوراً، وحكماً قـاسياً : ويثور الضمير، المطمور مدىً من العمر طويلاً، فيصرخ متحدياً عنيداً ، مرّاً، ويشير الى الآفاق البعيدة باءماءة خرساء بليغة : ويتململ التوق الى الأمجاد، ثائراً عـلى التوافه التي قنع بها،

والحصر في آفاقها الضيقة طموحهُ والحنين : ويستيقظ الانسان في الانسان، على مقارنة مؤلمة بين « واقعه » و « مثاله »، ليدرك الفراغ القائم في نفسه، والعدم الذي يجول هو في نطاقه . .

في فراغ نفسه، لا يرى الانسان حوله سوى الفراغ : وفي جدب كيانه إفقارٌ لكل ما حول كيانه من ثراء . . .

وفي هذا القفر الجاف، وفي هذه العتمة الخانقة، صدمة لرمق التوق والنهم في الانسان تنتهي به الى العقم . .

ومتى انعدم التوق من كيـان الانسان، فقد سقط في هوّة من اللامبالاة المجدبة، فبلغ شقاؤه حداً هو منتهى الشقاء! الا ! ان تعاسة الفراغ المجدب الذي قـد يبلغه الانسان، لدى اكتمال هذه الدورة العدمية في نفسه، لا يضاهيه رهبةً سوى سموّ البركات والخيرات التي تتمخض بها انسانيته، وتتحفز نفسه لقذفها فيضاً متدفقاً سخياً !

— ٤ —

شقاء الانسان هوة سحيقة، تشدّ به باغراء، وتحيط به في مجرى حياته، من جراء جهله بنفسه وبمنطوياتها الثريّة، ولهوه عنها بالتوافه، وانتهائه الى فراغ كئيب مقفر !

ولكن للشقاء مجرى آخر، لعله اشد من الاول هولا!

الشقاء الاول وليد جهل الانسان بانسانيته : امـا الثاني فسببه وعي الانسان لانسانيته !

من النقص ما يولّد الشقاء : ومن الامتلاء ما يولّد الشقاء !

●

ففي احشاء « الملء الانساني » خطر كامن على هذا الملء نفسه : وفي جوف الكنوز مـا يعمل على إفقارها : وفي صميم الخصوبة انزلاق يولد الجفاف فالعقم !

ومتى انسلخت قيم الانسان عن الإطار الذي مـن ضمنه تقوم والمعين الذي منه تنبع، فقد توقف تيارها عن التدفق !

ومتى اقفل الانسان، بنفسه، كوى نفسه التي يطل منها على الله، والحق والخير والجمال، فقد حجب النور الذي يضيء الجمال والخير والحق في نفسه، وشلّ القوة التي تحول « الله » الراقد في نفسه الى اله وثاب حي !

ومتى عزل الانسان نفسه عن الاخذ والعطاء، في تفاني الحب، فقد حط بحبه الى انانية مغلقة، وحوّل عطاءه الى أخذ لن يلبث ان يأسن ! . . .

ومتى اغلق الانسان نفسه عن نطاق الروح، الذي يشترك روحه معه ويتصل به، فقد قضى عـلى الخلق والتوليد في

obeikandi.com

نفسه، وخنقَ الحرية المبدِعة في صميم انسانية !...

في هذه الدورة الالتفافية، حيث يسعى الانسان لاستنزاف نفسه، واستخراج كنوز من احشائها، لا تنبع الّا من جوّاه انفتاحه على عالم « الله » و« الآخر » « والروح » — يرزح الانسان تحت عبء ثرائه المشوه الممسوخ، ويسقط في عياء تحت حمل الخصوبة استحالت عقماً...

تلك دورةُ تمرّدِ الانسان على مَعين انسانيته، وتشبثه بانسانيةٍ مبتورة، عارية التشويه، تتهرج فيها المفاتن لتستر عاهاتها فتزيد هذه العاهات وضوحاً، وتبدو الفاقة منها سافرة صارخة!

تلك ثورة الانسان على الله والحق والنور: يؤلّه نفسَه في كِبَرٍ فارغ، فينحط الى كبرياء هي منبع الشر والاثم في نفسه؛ ويتحكم في« الحق »، ينتزعه من نفسه وقد اجدبت من الحق الاصيل، فينقلب الحق في نفسه الى غرور المعرفة، وتهرج البُطل، ومخادعة الجهل، وسفسطة النسبية؛ ويستعيض عن النور الحي ببصيص النور من نفسه المغلقة، فينقلب نوره ظلاماً؛ ويستمد حريته وخَلقه من مَعين نفسه، وقد أقصاها عن صلاتها بالروح الذي يهبها الحرية والخلق، فتتحول حريته الى تمرد متعسف تائه، وينقلب خَلقه الى اجترار هو ملجأ العاقر لتستير فاقة نفسه !

ما ارهب الانسان

ما ارهب الانسان !

تستوعب نفسُه الحق، والله، والحرية، فتسمو بها الى ذرى الحب، والايمان، والقدسية، والخلق؛ وتستوي في قنن الكرامة والمجد والابداع . . .

وتجهل نفسُه نفسَه، فيهوي الى دركات التيه المتخبط بين التوافه، والعدميـة تجول في حقول الفراغ عاقرة مجدبة، واللامبالاة بالقيم والثراء . . . او تسارع نفسه الى استنزاف كنوز نفسها، حاجبة عن نفسها ضياء الله والروح في كبرياء الانعزال والانغلاق، فيهوي الى دركات الشر والاثم والعقم !

ما ارهب الانسان !

في انسانيته مجال رحب للكِبَر والسموّ !

وفي احشاء انسانيته عدو يتربص: يحوّل كِبَره الى كبرياء، وسموّه الى صغارة .

الانسان، في الانسان، هو مصدر العز والكرامـة —

والانسان، في الانسان، هو مصدر التدني والانحطاط . . .
فما ارهب الانسان !

— ١ —

الانسان كبرَ وصِغَر . . .
الانسان اله يحن لله، ويلتقي به في اعماق نفسه، فتتدفق من نفسه خيرات النور والحب والقدسية والحريـة . . .
الانسان مادة، فلذة من الطبيعة، صماء بكماء، مسخّرة لحمل ما في نفسه من كنوز، ونقلها وادائها . . . والانسان تمرد، شر وإثمٌ وفجور، لهوٌ وعبث، لا مبالاةٌ وعقم، انانيـة وحقد، عبودية واستعباد، شهوة متضورة ولذة نهمة . . .
الانسان لحظة من الزمان تسمو على الزمان لتضم الازل، ولحظة من الزمان تسارع مع الزمان نحو الفناء !
الانسان ثقة وايمان — او قلق ولهفة — او عبث ولامبالاة !
الانسان وحدة وانسجام — او تمزّقٌ وتمردُ شتيتٍ من الاجزاء على نفسها، وفصمُ عرى، وبعثرة قوى، وتناقضُ نوازع وارادات !
الانسان كمٌّ ومقدار، حفنة من المادة في متسع من المادة

هو الكون؛ ضعف تافه في طبيعة جبارة ضخمة: والانسان روح، لا تقاس بالمقدار، وتهزأ بالكم، وتحتقر في نفسها وميضاً من الوجود يفوق الوجود كله!

الانسان — يبني دولة بارادته، ويقوض اركان دولة بكلمة من فيه: وتقذف به لسعة عقرب الى جوف الفناء!

الانسان — تذل الاماني الكبار رخيصة امام قدميه: ويذل امام اللهو الفارغ في صغارة!

الانسان جزء — جزء ناقص، مبتور: جزء من المجتمع، جزء من الكون. والانسان كل كامل: كل في نفسه، فوق المجتمع وفوق الكون!

الانسان عبد: عبد الطبيعة، وعبد المجتمع، عبد الشهوة، وعبد الطموح، عبد الجهل، وعبد الشر والاثم، عبد نفسه، وعبد حريته! والانسان حر: ينتفض من سربال عبوديته، يحطم القيود والاصفاد، وينطلق ليلبي الدعوة الهاتفة في نفسه تدعوه ليكون نفسه!

الانسان «عزلة» ثرية، فيها السلوى، وفيها العزاء، وفيها الابداع. والانسان عزلة مجدبة، فيها الانانية، وفيها الفاقة، وفيها الضجر يلتمس السلوى، والخوف ينشد الاطمئنان...

والانسان «اجتماعية» ثرية، فيها الحب يبذل نفسه حراً لخير

الحبيب، والخير خدمةً وتعاوناً، والحكمة نوراً يتولد عن الاحتكاك والتفاعل؛ والانسان «اجتماعية» شوهاء، تقيد حريته بالاصفاد، اصفاد الدولة والرأي العام وثرثرة الغوغاء؛ وتقضي على فذوذيته فتحوّله كمّاً في مجموع ووحدةً نكرة؛ وتقضي على اصالته وتلقائيته وعفويته لتجمدها بمقاييس المجموع والآخرين!

هذا هو الانسان في حقيقته!

الانسان ثنائية وازدواج!

الانسان ثنائية تتعانق المأساة فيها مع الكرامة، والتمزّق مع الحبور، والتناقض مع الانسجام!

الانسان ثنائية لو لم تكن، لما كان الانسان!

— ٢ —

الانسان ثنائية المادة والروح، يلتحمان معاً فلا ينفصلان، ويتفاعلان معاً فيتحول كل منهما عن طبيعته المجردة، ويتخذ ماهيةً تستمد من التحامها بالآخر صفةً خاصة! فالمادة، في الانسان، «جسد»، يحمل الروح ويؤدي رسالته وينقل انفعالاته ويعبّر عن اختلاجاته، فيختلف عن المادة المحضة... والروح

في الانسان ، روح تقوم في جسد ، روح تناضل لتظفر بالغلبة على الجسد ، روح تعبّر عن نفسها بواسطة الجسد ، روح تكتسب من نضالها وغلبتها وتعبيرها ماهيةً غير ماهية الروح المحضة !

والانسان ثنائية بين الخير والشر ، يستقرّان في روحه ، ويعبّران عن نفسيهما في تعبير الروح في الجسد : ففي نزوع الانسان ، وارادته ، توقٌ يتجه نحو الخير ، فينجز الخير ظفراً على نوازع الشر المحيطة به باغراء ، وتوق يتجه نحو الشر ، مختاراً ، ليحقق الشر رغم النزعة للخير المستقرة في احشائه !

— ٣ —

والانسان ثنائية بين الداخل والخارج : الانسان ، في اصالته ، وحقيقته ، هو الانسان الداخلي ، هو عالم النوازع والنوايا ، والافكار والاحاسيس ، والحالات الوجدانية ، والآلام والاماني ، والحرية والاختيار ، والحالات الوجودية المختلفة ، يعانيها في باطنه ، وتقوم هناك ، وتدور ، وتتحقق . والانسان ، في تعبيره ، ونقله ، وبواحه ، انسان « الخارج » و « المظاهر » ، تحول الكلمة في باطنه فتنطلق نطقاً ، وتتدفق النوايا من باطنه ، سلوكاً في عالم

الخارج واعمالاً، وتعبّر الافكار عن نفسها اقوالاً ونظريات، ويتجلى كيانه — كيانه الباطني الاصيل — في « عالم الخارج » مظاهرَ واشكالاً ! في داخليته الاصالة الفذه، وفي خارجيته التشويه والانعكاس المتكسر والاستعباد للاوضاع وخضوع الفذوذية لاعتبارات المجاراة !

— ٤ —

والانسان ثنائية بين « الفردية » و « الشخصية » : الفردية عنصر « غيريـة » سلبية، والفرد فرد لانـه « غير » الافراد الآخرين؛ واما الشخصية فذاتية، ايجابية، تشير الى نفسها في عمق منطوياتها وخصوبة ثرائها . . . الفردية هي السربال والاطار، والشخصية هي المنطويات والمعاني والمضامين . . . الفردية كمٌّ ومقدار، ووحدة عددية، وجزء : اما الشخصية فنوع، ومضمون، وكلٌّ فوق العدد والكثرة . . . الفردية تفريق وتمييز، والشخصية فذوذ وفرادة ! . . . الفردية هي « الجزئي »، يجسد « الكلي » بالاعراض : واما الشخصية فتجسيد فذ فريد « للكلي »، يمتـاز على اي تجسيد آخر امتيازاً اصيلاً ! . . . الفردية قوامها الجسد الفرد : والشخصية قوامهـا فرادة الروح والارادة والحريـة

والذاتية ! . . . الفردية فلذة من الطبيعة، تنطبق عليها مقولات الطبيعة في الكم والعدد والمقدار : اما الشخصية، فعنصر اسمى من الطبيعة، ينقض على الطبيعة ويدخل فيها من عليائه، ولا يتدنى الى مرتبتها بل يحتفظ بازليته ازاء زمنيتها . الفرد يعيش في نطاق الخارج، مظهراً من المظاهر : واما الشخص ففي ذاتيته منطويات ثرية لا تتجلى الا لمن حقق نفسه كشخص ونفذ الى اعماق الآخر كشخص ! . . . الفرد يعيش في عالم من المواضيع والاشياء : واما الشخص، ففي عالم شخصي تدور حياته ويحقق نفسه ! . . . الفرد شيء : والشخص قيمة ! . . . الفرد يتشبث ببقائه : واما الشخص فحياته ووجوده سعي مستمر وحنين نهم لرتبة من الكيان الحر اسمى من البقاء ! . . الفرد يعيش في عزلة، هي ابتعاد مكاني او زماني عن الآخرين، او في اجتماعية، هي تقارب مكاني زماني منهم : واما الشخص، فعزلته تلتحم التحاماً وثيقاً مع اجتماعيته، وتتضمن احداهما الاخرى وتعكسها — ففي عزلته فيض من الغنى المتأتي عن التفاعل المتحاب، وفي اجتماعيته انعكاف على النفس في عزلة لا منقوضة ! . . الفرد، في عزلته، انانيّ، وفي اجتماعيته منقوض مضمحل : واما الشخص، ففي عزلته بذلٌ وعطاء، وفي اجتماعيته إثراء لنفسه وفيضُ خصوبة !

والانسان ثنائية «الانسان» و«سوى الانسان» : فهو انسان في نفسه، في صلب ماهيته، في كنوزه من قوى ومواهب . . . وهو انسان في ما يحيط به من اطار من القيم والقوى والكائنات . . . وهو انسان فقط في «وضعه» ضمن هذا الاطار وتلبية عناصر نفسه لنداء القوى والقيم والكائنات القائمة خارج نفسه :

في صلب انسانيته انعكاس للكون باسره، على تباين عناصره ومراتبه : في صلب انسانيته الله، والطبيعة، والقيم، حقاً وخيرا وجمالا، والحرية . . . تقوم، رغم تباينها، في وحدة وتضافر وانسجام . . .

وفي صلب انسانيته دعوة للقيا هذه الكائنات، والتفاعل معها، والانسجام بها، والاثراء بواسطتها . . .

وفي انسانيته كوى تطل على هذه العناصر، المستقرة خارج الانسان — فلا يكون نفسه الا اذا انفتح عليها والتحم بها، وتفاعل معها، ولبى نداءها . . .

ولكنه انفتاح لا يتم حقا، ما لم يكن انفتاحاً من الداخل،

يحفز مـا في الداخل ، من عناصر انسانية ، تعكس عناصر الكون كلها . . .

الانسان ، لا يكون ، كانسان ، إلّا حين ينفتح على « سوى الانسان » في اعماق داخله : يصغي لندائها وهو نداء من نفسه ، ويلبي نداءها في نفسه . . .

الانسان لا يكون نفسه الا اذا خرج من نفسه ضمن نفسه ، خرج من نفسه بنفسه ، ليكون نفسه وقد اكتملت عناصرها وتبلورت كنوزها ، فاعطت ثمارها !

الانسان ثنائية « الانسان » و« سوى الانسان » : فمتى عزل الانسان نفسه عن سواه من عناصر الكون ، انتهى في قفص من نفسه ، هو السجن لا الانعتاق ، والعبودية لا الحرية ، والفاقة لا الثراء . . . ومتى نظر الانسان الى تلك العناصر كعناصر خارجة عن نفسه ، لا تستوي في نفسه ولا تنعكس ؛ ومتى نظر الى النداء الهاتف في اعماقه للقياتلك العناصر ، كنداء منبعث من الخارج ، لا كنداء ينبعث من اعماقه ، تلبيةً لما في اعماقه من انعكاس لسوى الانسان مـن عناصر الكون — فقد فَقَدَ الانسان نفسه في شبكة « اللا انسان » . . .

الانسان على شفير الهاوية اللا انسانية : يقذف نفسه في جوفها متى حجب نفسه عن « اللا انسان » ؛ ويقذف نفسه في جوفها متى ارتمى

في احضان اللا انسان، غير مدرك عمق الاشتراك بين الانسان فيه و« اللا انسان »، وغير واعٍ احتواء نفسه على سوى نفسه، وغير عالمٍ بكينونة نفسه نفسَه بفضل احتوائها على سوى نفسه.

الانسان علاقة بين الانسان و«اللا انسان»: وهو هو طرفا العلاقة — هو الانسان وهو «اللا انسان»، يستقر في نفسه، ويبعث فيها نداء باطنياً ملحّاً، ويحفز فيها توقاً وثاباً وحنيناً!

. . .

الانسان ثنائية الانسان وسوى الانسان: وهو انسان فقط في «وضعه» ضمن هذا الاطار، وتلبيته لنداء القوى والقيم والكائنات، القائمة خارج نفسه، من ضمن نفسه:

تلك هي الحقيقة الكبرى — حقيقتك، ايها الانسان!

تلك انت وانا!

فما ارهب الانسانَ، في غنى امكانياته، في تعاسته، في ثنائيته وتناقضاته، في وحدته، في طريق صيرورته كينونتَه، وتحقيق مصيره!

obeikandl.com

مِلءُ الحَيَاةِ

في سياق الحياة — الخلق والابداع

الحب — الله — الحرية

هذا الكائن الرهيب — انت وانا — على ماذا تنطوي نفسه ، وماذا يحقق في نفسه ، في جلال وجوده ، يوم يكون انساناً باصدق معنى وارقى مرتبة ؟

فيمَ تقوم كرامته؟ واين نعرى القيم والمفاخر في حياته؟ وفي اية زوايا تستقر انسانيته الاصيلة ، وقد اينعت ثمارها وتجلت كنوزها وشعّ ضياؤها يغمر الكون بهز النشيد : « اني انسان ! » ؟

obeikandi.com

في سياق الحياة

في سياق اجتماعية الانسان يتبدّى لون من الوان انسانيته مضمّخاً بظلال ثرية تشعّ فيه من زوايا كيانه المختلفة، فتزيد في هذا اللون غنىً ووفرةَ اشراق.

هي زاويةٌ واحدة، زاويةُ اجتماعيته: بيد ان اطياف الشخصية المتبدية فيها، تنبثق عن الشخصية بكاملها، وحدةً منسجمةً انسجامَ «الانا» في عفوية النطق بها وتلقائية وعي ذاتيتها!

ولا تتحين هذه «الشخصية» الفرص لتتبدّى في غناها وعمقها: فان الشخصية التي لا يتجلى نورها، ويتعرى جوهرها، الا في المناسبات الخاصة، لشخصيةٌ مجزأة، مهلهلة البنيان، غير اصيلة الكنوز، وغير منسجمة النوازع والقوى، وغير عفوية التجلي!

بل ان الشخصية تتبدى، وتتبدى كاملةً، في كل خطوة على طريق الحياة، وفي كل مرحلة من مراحل الوجود! انها تتبدى، وتتبدى كاملة، في الجد واللهو، في الملهيات والملذات، في العياء والراحة، في المحبة والكراهية، في الصراع كما في التراخي، في العطاء كما في الاخذ، في الترف وفي الفاقة، في الازمة وفي فترة الحياة الرتيبة، في القلق واللهفة والتوتر، كما في الاستقرار والاطمئنان..

ان الكنوز متى توفرت في اعماق الكيان ، لا تلبث ان تتجلى في كل لحظة من لحظات الحياة .

وان كل فرصة تمر في حياة الانسان ، هي محك لانسانيته بشمول بنيانها وبحقيقة جوهرها .

ومن اتقن حجب حقيقته بقناع زائف من التستر في مناسبات معينة ، فلن يلبث ان يسفر حتما عن وجهه الصحيح في فلتة لسان ، او هنيهة اصالة ، او عفوية عمل ، او ايماءة او حركة — مهما كانت ضئيلة الشأن عرضية — تبدو منه قبل ان يتصنع في ابدائها ، ويتحكم في شكلها وعيه !

— ١ —

في سياق حياة الانسان الاجتماعية يتجلى « وجدانه الاجتماعي » ، ويتعين مدى تأصل هذا الوجدان :

ومن عاش في مجتمع ، غريباً عن آلام ابنائه وامانيهم ، بعيداً عن احاسيسهم وارادتهم ، متجفجفاً عن العمل في سبيل خلاصهم ، ومتجنباً البذل في سبيل إسعادهم — من عاش في مجتمع ، ولم يهب لدرئه من مكرهة ، او لانقاذ كرامته من عار ، او للمساهمة في رفع مقامه واعلاء شأنه — من عاش في

بمجتمع ولم يتحمل كافة مسؤولياته المتولدة عن اشتراكه في حياة هذا المجتمع — من عاش في مجتمع ولم يفعل في نفسه « الولاء الاجتماعي »، بكامل معناه ومستلزماته وشروطه وواجباته : فقد عاش انساناً مبتوراً، لا ينعم بكرامة الانسانية الجاثمة في نفسه !

ومن لم يشعر « برسالته » الى المجتمع الذي يعيش فيه — رسالته الفذة الفريدة، يؤديها هو ولا يستطيع سواه اداءها — رسالته في انهاض مجتمعه من زاوية ليس من ينهضه منها سواه — رسالته نحو مجتمعه سيئاً كان ام صالحاً، ناهضاً كان ام راقداً، كريماً معزّزاً كان ام ذليلاً، عامراً بالحيوية الوثابة كان ام رازحاً تحت كابوس الخمول واللامبالاة، قانعاً بالذل، منتظراً حكم الاقدار في مصيره، كان، ام متوثباً لتسطير المجد بانامله، واعتلاء المفاخر سلّماً للخلود، واثقاً بنفسه كان، ام متسكعاً على اقدام الآخرين يستجدي منهم حقّه بالبقاء : من لم يشعر برسالته الى مجتمعه — كائناً مجتمعه ما كان — فعالةٌ على مجتمعه قد عاش، وعالةٌ على نفسه الاصيلة عاشت نفسُه الزائفة !

ان الوجدان الاجتماعي، « والولاء الاجتماعي » — ايجابيين في فعاليتهما، بنّاءين في اتجاههما، فائضين بالمحبة للمجتمع بعينه ولسواه من المجتمعات — لمن مستلزمات انسانية الانسان : ومن

ملئها تشع حياة ملأى بالنضال والتضحيات، والكرامة، والنبل.

— ٣ —

وفي سياق حياة الانسان الاجتماعية تفاعلٌ ومعاملة مستمران، تزخر بهما هذه الحياة.

ومن هذا التفاعل يتم إثراء متبادل للاشخاص الذين يكوّنون اطرافاً في هذه العلاقات «الاجتماعية الشخصية» — إثراء، وليد الصداقة وما تحمله من تعارف متبادل، وخدمات متبادلة، ووليد الخصام والاصطدام، والعداء والكراهيـة؛ وليد الاشتراك في التفكير، وتبادل الآراء، والاتصال الفكري الروحي المثمر؛ وليد المؤسسات والمنشآت، تفيض بالخيـر والخدمات؛ وليد التراث المشترك، والعادات العامة، والمفاهيم الموروثة والمشتركة، والنظم والتقاليد؛ وليد هذه الشبكة المعقدة التي تكوّن بمجموعها حياةً اجتماعية واحدة، رغم تباين عناصرها واختلاف الوانها.

وتستطيع الحياة الاجتماعيه ان تكون مصدر إثراء خصب حين تنبثق حياتها عن احترام للشخصية كريم؛ كما تستطيع ان تكون عاملاً على الكبت، والافقار، والتشويه، حين تستهين بكرامة الشخصية وحقوقها وحريتها وقيمتها الداخلية.

والحياة الاجتماعية السليمة، والانسانية بحق، هي التي يتمّ فيها التفاعل « الشخصي » بكامل مضمون هذه الكلمة:

فمَن حقّق ملء شخصيته، تفاعل مع الآخرين تفاعُلَ « شخص » و « شخص »، في احترام ومحبة وتعاون — لا تفاعُلَ «شيء» و«شيء»، في ازدراء واستثمار وانانية: وتحوّل المجتمع، بفضل هذا التعاون، من مجموعة شبه بشرية (« مجموعة افراد ») الى مجتمع بشري اصيل (« مجتمع اشخاص »).

— ٣ —

وفي سياق الحيـاة الاجتماعية، القائمة ضمن اطار « التفاعل الشخصي »، تبرز فضائل متعددة، تحوّل هذا التفاعـل الى فسحة للبناء الذاتي المتبادل، وللخير والاحترام والمحبة!

في تفاعل الانسان والانسان — خطوةً خطوة، ومرحلة مرحلة، وفي كل نوع من انواع الفُرَص والعلاقات والمناسبات — مدى تحقيق الانسان لانسانيته، واثرائه لشخصيته:

في هذا التفاعل تقوم « المحبة »:

المحبة: لا تكره، بل تتأنى وترفق؛ وتبادل الاساءة بالغفران، واللؤم بالكِبَر؛

المحبة : لا تضن بالعطاء، ولا تتردد في البذل : وحين تجود، يكون عطاؤها فائضاً سخياً رغم الفاقة والعوز. والعطاء حين يتم عن وفرة، اخفض قدراً منه اذ يتم عن حاجة !

والمحبة: لا تعرف حدوداً، ولا نطاقاً يتوقف عنده تدفقها: بل تشعُّ سماء على الانسان حيث كان؛ وتتميز، في كل انسان، قريباً، قد له يد العطاء السخية اذ يحتاجه، وتقدم له الاحترام ولو لم يستحقه، وتضمر له الخير بملء الخير الجاثم فيها، وتثق به ثقة الاخلاص البري، الكريم.

المحبة : خدمةٌ وتعاوناً، وتلبيةٌ للاستغاثة الخرساء قبل الاستنجاد الصارخ.

المحبة : ومقياسها أن الكبير كبيرٌ بخدماته وتضحياته؛ وأن العادل من تعدى العدالة الى المحبة المتسامحة الباذلة؛ وأن محترمَ نفسِه مَن احترم غيرَه قبل نفسه؛ وأن المطالبة بالحقوق يجب ان لا تقوم الا بعد القيام بالواجبات.

ومَن حقّق ملءَ شخصيته، وشعّت المحبة من نفسه، تفاعَلَ مع الاخرين تفاعُلَ نبلٍ في المقاصد، وصدقٍ في المعاملة، وكِبَرٍ في النفس، واخلاصٍ في الولاء، ووفاء بالوعد يفوق الوعد، وامانة ونزاهة وتجرد.

ومن حقّق ملء شخصيته، وتفاعل مع الآخرين على هذا الصعيد من المحبة والكِبَر والنبل والكرامة، وشعّ الخير من نفسه، وتعرى في سلوكه ومعاملاته — فانما عن فيض داخلي من الخير والمحبة هو يفعل !

ان الخير الحقيقي لا يقوم في ما يتخذه السلوك من اشكال وما تتقيد به التصرفات من قوالب — بل الخير الاصيل يقوم في الروح المسيطرة في داخل الانسان، تُكيّف تصرفاته، وتحدّد افعاله، وتنبثق عنها اعماله وحياته بكاملها.

ان الخير الحقيقي ليس في الافعال والسلوك بل في الروح الكامنة وراءها، في مبعثها ومَعينها، في مجثمها الاول: في داخلية الانسان !

كم من شرّ ثوى في اعماق الانسان، ولم ينطلق للتدمير، خوفاً من عقاب — وكم من شر استقر في الاعماق، ثم انطلق عملاً، له سمة الخير وليس بخير، طمعاً في ثواب. وكم من خير جثم في النوايا، واستحال، لدى الفعل، الى شكل شر او صورة اثم:

« انما الاعمال بالنيات ! »

« لقد قيل : لا تزنِ . اما انا فاقول : ان من نظر الى امرأة ليشتهيها، فقد زنى بها في قلبه ! »

القانون ، والشريعة، والناموس (فرائض ونواه) تتحكم بالاعمال، وتذر الروح الداخلية سائبة طليقة، لا تمدها بالحفز والالهام؛ تحكم على اشكال الاعمال في خارجيتها، وتهمل النواة المولدة لها في مهد الاعمال الاول ومَعينها الاصيل) – تضل مقصداً وتخطيء مرمى، وتسيء الى الانسان من حيث لا تدري . . . تضل في المقصد : لانها تتحكم في النتائج، بينما العلل ترتع في اجوائها طليقة، تعصف فيها الآثام والنوازع سائبة مستبدة . . . وتسيء الى الانسان : لانها تتيح له ان يلهو بتكييف اشكال اعماله، مرخياً لاراداته ونوازعه العنان . . . وهي تسيء الى كرامة الانسان : لانها تنظر اليه، ضمنياً، نظرتها الى الآلة الطائعة المنصاعة لاحكام الشرائع، بدلاً من ان تتميز فيه كائناً حراً مبدعاً، ان استقر الخير في روحه فخيراً يفعل رغم كل قيد، وان عصف الاثم في نفسه فشراً يثمر رغم كل وازع !

اعمال الانسان وتصرفاته وليدةَ روحه الحرة تكون، ان كانت اعمالهَ حقاً، وان كانت بحق مقياساً للخير المهيمن على نفسه : واما المجتمع الذي يحكم ويقاضي، بالقياس الى

مفاهيمه ومصالحه، وعاداته وتقاليده، واعتبارات الثروة التي تلهو بها جماهيره وافراده، والمراءاة والمداهنة التي تفرضها «خارجية» نظراته، فيضل ايضاً في مقصده، ويخطيء في فهمه للانسان، ويسيء الى الانسان من حيث لا يدري!

ومن فعل طيف الخير، انصياعاً لقانون، او تجنب عملاً نظر اليه المجتمع كشرّ، فقد داهن القانون والمجتمع، وامتهن كرامة ضميره وازدرى بحريته! وربّ تمرد على قانون، وثورة على عرف، في سبيل الدفاع عن حرية معتقد، او اصالة شعور، كان حقاً للانسان، بل واجباً عليه! وربّ انزلاق في شر، بملء ايمان وكامل حرية، كان خيراً من إذعان لقانون فرَض الخير فرضاً!

— ٥ —

وفي سياق حياة الانسان الاجتماعية مهمّات وواجبات، تتطلب من الانسان حساً حيّاً بالواجب، وإقداماً على تحمّل المسؤوليات، واقبالاً على المصاعب والعقبات بروحيّة النضال المقدام المتوثبة.

اما الواجب، فالحس به من عناصر النفس التي، اذ تُفقَد، تفقِد الانسان غنًى في النفس لا يعوَّض. لان « الواجب » صدى المحبة في النفس، ودليل الجرأة والتضحية، ورمز النشاط والفعالية: ومتى فقدت النفس المحبة والجرأة والنشاط، فقد فقدت فعاليتها وإثمارها.

والحس بالواجب لا يكون حساً « تفرّجيًّا »، كاحساسك بان السماء « يجب » ان تمطر بعد جفاف: وانما الاحساس الاصيل بالواجب يقترن حتماً باحساس شخصي باعبائه على الانسان نفسه، وبالزاميته له بعينه! اما « التفرج » و « والاتكالية » والقاء المسؤوليات على عاتق الآخرين، ومطالبتهم بعمل بدلاً من الاقبال على تنفيذه، فاشباحُ نفعية كالحية، وشلل كسول، وجبن.

واما الإقبال على الواجبات بروح النضال، فيتطلب الادراك الواعي بان الطريق، طريق النضال، طويلة مستمرة، وعرة شاقة، ملأى بالمفترقات الغرارة، والصدمات المفاجئة، والحُفَر والهبوطات؛ والسير فيها يتطلب صلابةً لا تهادن ولا تساوم طمعاً في راحة، وتحملاً للمشاق لا يذعن لاغراء الطريق السهلة ولا يسقط من اثر الصدمة، ولا يخبو ايمانه ولا يفتر نشاطه في جوف الفشل . . . انه يتطلب اخلاصاً، وجرأة،

واقداماً ، وتأهباً للتضحيات . . . انه يتطلب اداء الواجب في سبيل الواجب ، لا طمعاً بغنم ، ولا هرباً من عار !

انها البطولة : شرط لاداء المهمات ، والظفر والفوز . . .

ومتى استقرت البطولة وثابة في صميم النفس ، تبددت من آفاق الحياة غيوم دكناء من الكآبة واليأس والكسل ، وانشق من وراء الافق فجر ضياء ، غني الظلال ، يُشرق على الحياة فتشع الامجاد من جنباتها ، ويدفيء الحياة فتنضج ثمارها وتتعرى كنوزها . . .

انها البطولة : وما الانسان دون البطولة ؟

الخلق والابداع

في سياق الحياة الاجتماعيه امتلاء وإثراء، يخصب في العزلة ويثمر، وينضج ويكتمل : حالةً كيانيةً غنيةً، مثقلة بالثمار، ملأى بالكنوز . . .

وفي صميم هذا الإثراء توق للفيض، وحنين للتدفق، ولهفة للأداء، تعبيراً وبواحاً . . .

هنا مولد الخلق، بكراً، تتمخض به النفس بعناء المخاض، وتنعم بابداعه النفس بنعيم التوليد :

هنا مولد الخلق، في الإنسان، والتوليد : تدفقاً للكيان المتوثب في حالته الداخلية، وصورة له ومثالا .

هنا الخلق : شخصية مكتملة ملأى تزداد اكتمالا بفيضها، وتكتسب اصالة في الامتلاء بتدفقها .

هنا الخلق : شخصيةً موحدة الذاتية، موحدة اللون رغم تنوع الظلال، موحدة الامتلاء في غنى الامتلاء : تتمخض، فتلد مما في نفسها — فلا يلبث ابداعها، وقد انتقل بواحاً في نطق او رسم او نغم، ان يتبعض ويتجزأ، ويستوي في قوالب من القول او الرسم او النغم . . .

هنا الخلق: حالةً كيانيةً ثرّية وثّابة، في الاصل – ينتقل عبر البواح ابداعاً مبعثراً: في نشيد او تمثال او نظرية او قطعة موسيقى.

•

هنا الخلق: فيضاً محتماً، يجول في النفس تواقا للتدفق... وهل يقوى الينبوع على كبت الامواه المختزنة في احشائه؟ ام هل تستطيع الشمس ان تحول دون انبثاق الضياء من امتلائها بالضياء؟

هنا الخلق: تعبيراً وبواحاً:

مشوه مدسوس؛ او صاف نقي؛ او ذبذبة بين فلتة عفوية صافية، وكتلة من التشويه تخنقها بين ثناياها: ولكنه، في كل حال، تعبير، وبواح... وفي كل حال، صدى للزخم المتوثب في الداخل، في الاعماق، يتلهف للبواح.

•

هنا الخلق: تنوعاً، مختلف الظلال، متعدد الوسائل، متباين المقاييس...

ولكنه وليد الحالة الداخلية الواحدة، يفيض في هذا المجرى او ذاك، وينقل – في اختلاف مجاريه – تلك الحالة الاصيلة الواحدة. وهل تثمر التينة إجاصاً وتفاحا؟ وهل

obeikandl.com

الاغنية ، في جوهرها ، سوى توأم الرقصة ، او التمثال ؟

اختلاف ثمار الخلق — فنوناً ، او فلسفة — اختلاف وسائل ومقاييس ، ومجار . : اما المنبع فواحد ، واما الفيض ففيض لا يتجزأ في منبعه الاصلي !

تنقل القصيدةُ الحالةَ الكيانية الاصيلة ، في كلام ، يتسرب الجمال من ثناياه في مبنًى من الموسيقى والوزن والقافية . . . وتنقلها الصورة ، خطوطا وظلالا . . . وينقلها التمثال ، جلالَ شكل ، وجمالَ مرمًى وفكرة . . . وتنقلها الرقصة ، حركات تنبض بالحياة . . . وتنقلها الفكرة عبر الكلمة وتراكيبها في جملة فقياس . . . ولكنها حالة واحدة : حالة إثراء وتوق — فيها الجمال ، وفيها الحق ، وفيها الخير ، وفيها لهفة الحق والخير والجمال للنقل والبواح !

❁

واما الخلق الاكثر إبداعا ، والاكثر اصالة ، والاكثر تمثيلًا للحالة الكيانية الاصيلة المتوثبة في اعماق العزلة والداخل — فهي الحياة الشخصية بملئها واكتمال عناصرها ، وتنوُّع ظلالها ، ووفرة ثرائها ، ضمن اطار وحدتها الاولى ، وعفويتها المتأتية عن قربها من معينها الاول !

واما المبدع الاكبر ، فليس الشاعر ، وليس النحات ،

وليس الراقص، وليس الفيلسوف في جلال حكمته: وانما المبدع الاكبر هو الانسان في حياته، في كل لحظة من لحظات حياته الاصيلة، الزاخرة بالكنوز، الفائضة بالبطولة والحب والقدسية!

يكون الانسان نفسه، خلّاقاً، في قصيدة او صورة؛ ولكنه يكون نفسه باكمل معنى، خلاّقاً باسمى ابداع، في حياته ووجوده!

الا! ان اللحظة الواحدة من حياة الانسان، حياته الحقة، قد تستوعب في القبضة من الاحاسيس والانجازات المحتواة في اكتمالها، كل جمال وحق وخير، كل فن وفلسفة وجلال!

●

هنا الخلق:

فاذا انقطع مجراه، وتوقف تدفّقه وشحّ ينبوعه، فماذا يبقى من ثراء الانسان واكتمال كرامته؟

الا! ان الفاقة المجدبة، اذ تقوم في النفس العاقرة فتقلبها مجترّة لا مبدعة، ماسخة ناقلة لاحيية مولدة، فارغة لا ملأى — ان هذه الفاقة هي هي مصدر هذا اليأس، او الفراغ، او اللامبالاة، او الضجر الكئيب: تقرأها في وجوه الناس، وتلمسها في تصرفاتهم، وفي تلاشي طموحهم، وتبدّد حيويتهم،

وانخفاض بصرهم عن القمم العالية والآفاق البعيدة . . .

ان هذه الفاقة — انعدام القيم، وشلل القوة الدافعة النابضة بالحياة — هي هي مبعث الفراغ في النفوس ينقلب اقبالاً على اللهو، واللهو ينقلب لا مبالاة، واللامبالاة تنقلب ضجراً، والضجر يتحول الى موت اثناء الحياة . . .

❁

واما تجديد الفنون، وبعث الحكمة الحية، وحفز الاخلاق نبلاً وطهارة واشعاع خير — فمردّه في الدرجة الاخيرة تجديد الحياة، واثراؤها في حب وبطولة وايمان.

الا ان الانسان، الحي، هو في حياته المبدع الاول !

الحب

في سياق الحياة الاجتماعية، وامتلاء الحياة الشخصية، لهفةُ عزلةٍ، وكآبةُ وحشةٍ، وحنينٌ الى الامتداد، فالتحام « الانا » بـ « الانت » التحامَ حب !

●

والحب غير المحبة :

المحبة إشعـاع خير، وعطاء : والحب التقـاء « الانا » « بالانت »، في علاقة ادنى منطوياتها الخير والعطاء !

المحبة بذلٌ يفيض على الجميع، القريب والبعيد، المعروف والمجهول – على الانسان كانسان، في « تجريد » « لا شخصي »، في تجريد عن شخصيته وقيمته و « منهوته » وذاتيته . واما الحب فعلاقة شخصٍ بشخص – شخص بذاته، « بانويته » الفذة، بشخصيته الفريدة، لا يُستعاض عنها، ولا تُستبدَل، ولا تتساوى مع الآخرين في شبهٍ او مقامٍ او شبحِ مساواة .

إسأل الام عن وليدها، ولها من الابناء كثرة : هل يقوم هذا، في قلبها، مقام ذاك ؟

وأسأل الحبيب عن حبيبته : هل تستوي، في قلبه وعقله

ونفسه، مع ايٍّ كان من العذارى، يزخر بهنّ الكون حتى التخمة ؟

المحبة بشرية عامة، « لا شخصية » : واما الحب، فشخصي الى ابعد حد؛ انه «شخصي» قبل ان يكون «بشريا» او «انسانياً» : انه مجثم التأصل الشخصي في الانسان، ودليل تأصّل الوعي الشخصي في اعماق الوعي الانساني .

في الحب « انا » و « انت » : واما في المحبة، فانا، وانت، وهو، وكل ما في اللغة من ضمائر، يُستبدل كل منها بكل ما في العالم من اسماء !

●

الحب تلبية اللهفة الظمأى في اعماق العزلة، اعماق « الانا » : وهذه اللهفة، تعجز الحياة الاجتماعية، بكافة مسؤولياتها وفضائلها — ويعجز الخلق، بنعيمه ولذته — عن اشباعها وإروائها !

انها لهفة « الانا » — لا تستقر ولا يهدأ توترها الا في احضان « الانت » !

وهل « الانا » في صميمها، وفي اكتمال تحقيقها، سوى « الانا » في لقياها « للانت » ؟

هي وحشة العزلة الكثيبة تعجز العلاقات الاجتماعية

الباهتة – تعجز الصداقة، رغم تأصلها؛ والمحبة رغم تدفقها – يعجز الابداع، رغم نشوته – عن اخماد نيران لهفتها المتأججة .

هي وحشة العزلة الكئيبة – تتلهف، تتلهف العروس الكفاء وليدها البكر – تتلهف، تلهف الام لشفاء طفلها العليل – تتلهف لجوّ الدف، والالفة، والحنان، الذي لا يتوفر الا في انطلاق النفس من نفسها في الحب للقيا الحبيب .

مقفرة هي الحياة بدون الحب: وجدب عاقر .

وثرية هي الحياة، يوم يحفزها الحب، ويكسب اعماقها عمقاً، وظلام وحشتها انبلاج فجر بهيج .

ثرية هي الحياة، في الحب، رغم آلامه ومآسيه، واتراحه واشجانه : واما نشدان الراحة والاستقرار بتجنب الحب، فشأنه شأن نشدان الهدوء والاطمئنان بتجنب البطولة، وتجنب الفشل بتجنب الجهاد والطموح .

●

الحب حب شخص بعينه، حب « الانت » بكامل « انويتها » .

هو حب الشخص باعماق شخصيته كشخص :

ليس حبّ هذه المزية فيه او تلك، هذه القوة او تلك، هذا التفوق او ذاك، هذه القيمة او تلك ؛

ليس حبّ مزايا وخصائص، او امتياز وتفوق،
لا ينضب بنضوب المزايا، ولا يزداد بتفتق نبوغ جديد؛
هل يتضاءل عطف الام على وليدها، اذ ينزلق في اثم،
او يتبدى منه شبح حقارة ؟

ليس الحب اعجاباً، وليس تقديراً، وليس تعلقاً بمزايا!
« لماذا، اذن، تحب هذه لا تلك ؟» — يسألون في تعجيز.
ولكنهم يخطئون مرمىً: فهل الحب بكامله سوى لغز؟
هل اللهفة، المتصاعدة بتصاعد الاكتمال في النفس، المزدادة
توتراً بازدياد الخصوبة والغنى في الاعماق — وهل «اللقيا»،
والدفء يشع من الالفة فيها — وهل الاقبال على المآسي في
الحب : هل هذه كلها سوى الغاز، يحار العقل في تحليلها،
ويقررها القلب بضياء اليقين ؟ الحب بكامله لغز : فهل
يعاب عليه ان تكون خطوته الاولى محاطة بهالة اللغزية ؟

الحب حب شخص بعينه، لا لمزاياه، ولا لخصائصه، بل
لانه هو!

اما حب الخصائص والمزايا فطيف من حب الذات
والانانية.

واما الاعجاب فتعلقٌ بالمزايا، دون الشخص المحتويها.
حب الخصائص والمزايا يتجه نحوها، ويتعلق بها حيث استقرت؛

والاعجاب ينتقل من شخص لشخص ، حيث تتوفر مقوماته مدى السمع والبصر : واما الحب فيأبى الاشراك ، لانه حب شخص بعينه ، والشخص فذ فريد ، والشخص واحد لا يتكاثر ولا يندمج ولا يتساوى بالآخرين !

في الحب قفزة من « الانا » الى « الانت » : قفزة كاملة ، من اعماق الشخصية والوحشة والتفرد والعزلة ، الى اعماق شخصية الانت ووحشته وتفرده وعزلته .

ليست قفزة « تعارف » وحسب ، وليست قفزة « تفرج » ، وليست قفزة « اطلاع » — فضلاً عن انها ليست قفزة « اعجاب » او « تقدير » :

بل قفزة « حب » !

هي عناية « بالانت » ، كائنا « المعنى » هو « المعنيُّ به » ؛ هي اهتمام ، فوق اهتمام الصديق بصديقه ؛ هي عطف لا كالعطف ، وحنان لا كالحنان : هي « حب » !

وهل يعاب ان « الحب » لا يُحدَّد الا بالتضاد ، ولا يوصف سوى بنفسه ؟ هات لي شيئاً كالحب في الحياة ، اقارنه به ! هات لي ، في سوى الحب ، بذوراً من بذور الحب ، احلل الحب بالنسبة اليها ! اما والحب حالة فريدة في النفس ، فبديهي ان تأبى التحليل او الوصف الا بالنسبة الى نفسها !

هي قفزة « حب » : ومن لم يحب، فليقنع بهذا التكرار المبهم، ولا أقنع انا بعجزي عن وصفه له !

أن تحاول ان تُقنع بالبطولة من لم يختبر نشوة البطولة — وأن تحاول ان تصور الابداع لمن لم تتمخض نفسه بالابداع — لأسهل من ان تحلل الحب لمن لم يحب !

. . . هي قفزة « حب » هذه القفزة : ينكر فيها المحب ذاته، ويبذل نفسه، ويعطي من صميم كيانه، جواداً غير محاسب وغير مبتغٍ شكراً وغير ناشدٍ تقديراً !

هي قفزة « حب »، تفيض فيها النفس عطاءً، وتسخو بذلاً، وتجود خدمةً وتضحية، وتعود الى نفسها لتستيقظ على ضآلة ما انجزته بالنسبة الى ما توثب في نفسها من توق للإنجاز!

هي قفزة « حب » : تتجسد في اقوال، واعمال، ولكن أنّى للاعمال والاقوال ان تبوح بما في النفس من توثب للفيض !

هي قفزة « حب » : طيف من روح الله، وبعثُ اله في الانسان !

هي قفزة « حب » : صفعة في وجه العزلة، والانانية.

هي تحدٍّ للانانية وللانكماش على النفس : يحار « العقل الحسابي » في تبريرها، ويحار « المنطق » في تحليلها ؛ وينتصب « واقعها » وانجازها في القلب اثباتا اختباريا لسموها، وتدليلاً

على غناها !

هي النفس تبذل نفسها : لا طمعاً في ربح نفسها ، ولا طموحا لنفع !

« من نشد نفسه خسرها ، ومن خسر نفسه في الحب وجدها » تلك حكمة الاجيال في الحب : ولكن لحظة واحدة من الحب تصرخ بما هو ابلغ من حكمة الاجيال ، تصرخ وتقول : « بل من تأهب لانه يبذل نفسه دون ان يجدها — من تأهب لان يخسر نفسه وثراءها وعمقها في الحب — فذاك ، وذاك وحده ، هو المحب ! »

والحب اكرم من ان يضن على النفس بنفسها من جراء الحب !

فحين تعود النفس الى نفسها ، في كل لحظة ، نفساً محبة باذلة ، تعود الى نفسها مثقلة بالكنوز ، كنوز لم يعرفها سوى المحبين :

انها تعود وقد خبرت معجزة « الثقة » ! ثقة المحب بالحبيب ، ظفراً مستمراً على اغراء الشك وضعفاته : « طوبى لمن آمن ولم يرَ ! » قال المؤمنون ؛ اما الحب فيقول : « بل طوبى لمن آمن على الرغم مما يرى ، مما يدعوه الى الشك ! »

انها تعود وقد خبرت معجزة « الصفح » و « الغفران » :

ليست منّةً يمنُّ بها المحب على الحبيب، بل صفحاً تلقائياً؛ وليست بالصفح المسامح في كبر، بل هي صفح ينسى الاساءة ولا يتعرف اليها . . .

واذا كان الغفران معجزة، فان تقبُّلَ الغفران معجزة ابلغ: لان متقبّل الغفران، من الغافر، ذليل؛ واما متقبل الغفران في الحب فشاركٌ لباذله فيه، كريم!

والنفس المُحِبة تعود من الحب، والحب لها ضمير جديد، ومراقب محاسب فوق الضمير إلزاميّة، واكثر من الضمير أصالة: الضمير يفرض على النفس واجباً، واما الحب فينبثق منه الواجب عفوياً لا كالواجب!

والنفس المُحِبة تعود من الحب خيراً وضّاءً، لا يضمر الشر لاحد، ولا يستطيع: بل يشع خيراً من ملء الخير في نفسه!

والنفس المُحِبة تعود من الحب بمقاييس جديدة في الحياة: لا تتشبث بكرامة ازاء محب معتدٍ على كرامة، ولا تمسك بحرية ازاء محب كابتٍ للحرية: بل تعود الى نفسها، كريمة في الحب، وفي الحب حرة!

الحب عامل إثراء، يهب للنفس ما لا يستطيع سوى الحب ان يهبه:

في الحب يشارك الانسان الله: وهل الله سوى الحب؟!

الله

نشد الانسان الله منذ كان انساناً . . .

نشد الانسان الله في الطبيعة : تنوعَ وجودٍ ، ودقةَ نظامٍ : ولكن الله لم يكن في الطبيعة . . .

نشد الانسان الله في جبروت الهركان ، وعصف الاعاصير ، وزمجرة الزوبعة ، ودوي الرعد : ولكن جبروت الله لم يكن في ايٍّ منها . . .

نشد الانسان الله في ضياء الشمس ، ووميض البرق ، والتهاب السعير : ولكن نور الله وحرارته لم تكونا فيها . . .

نشد الانسان الله في رقة النسيم وشدو العصفور ، وجمال الرياحين ، وعذوبة الماء ، ورقصة الجدول الفنوج : ولكن رقة الله لم تكن في ايٍّ منها . . .

نشد الانسان الله في اتساع اليم وامتداد الافق : ولكن رحابة الله لم تكن فى اي منها . . .

. . . وانتفض الانسان ، وقال مع الساخرين : « اين هو الله ؟ ان الانسان هو الذي خلق الله — في هنيهة ضعف

او لحظة التجاءا» – بيد ان صوتاً داخلياً كذّب هذه الصرخة وسخر من هذه السخرية . . .

فعاد يفتش وينشد :

ونشد الانسان الله في المجتمع – في تقاليـد عشيرة او اسلاف عائلة، او اعتزاز سلالة ، او عتوّ دولة : ولكن العشيرة انقرضت، واستحالت العائلة الى سلف لا خلف له، وانحطت السلالة ودالت الدولة . . . وظل الانسان ينشد الله . . .

ونشد الانسان الله في اعماق نفسه : نشده في الضمير يزجر ويحفز : ولكن إلزامية الضمير لم تكن سوى صدًى لله في الضمير !

فنشد الانسان الله في فنه وابداعه وفلسفته ، وألّه ابداعه في الحق والخير والجمال : لكن الله ظل يتعالى، ظل مصدراً للحق والخير والجمال، وللخلق والابداع.

. . . وظل الانسان في توقه ولهفته . . . وظل في تضوّره، ينشد الله !

وتراءى له ان الله قائم في مؤسسات تدّعي تجسيده، ورجال يدعون تمثيله – في طقوس تُفرض سلّماً للوصول الى رضى الله، والتمتع بثوابه، وتجنّب عقابه . . . وفي عقائد تُفرَضُ شروطاً للايمان به، واستيعابه . . . وفي نواميس

وشرائع، تُفرض رشوةً له، وخداعاً لتستتر الشر الكامن في النفس... وفي هياكل ومعابد، تُفرَض على الانسان، وعلى الله، فلا يحلّ الا فيها، ولا يتراءى للمؤمنين الا بواسطة سدَنتها والقيمين عليها... ولكن الله ظل بعيداً، بعيداً عن ان يقنع بمثل هذه العبادة الخادعة، والايمان الباطل — بعيداً عن ان تشبع لهفته، او يرتوي ظمأه...

... ومع الانسان صوتا، رقيقا، له طيف شعاع، ودفء حرارة، ونبل اخلاص: صوتاً منبعثاً من الداخل، داخل نفسه، شهادةً حية على الوهة نفسه وجلال الله:

مع صوت الحب: يدعو الى البذل، الى الخلق، الى الخير...

فايقن ان الله حب، وان الحب قبس من الله...

وايقن ان الله روح، وان الله قوة، وان الله خير، وان الله جلال وحرية...

وعندما عرف الانسان نفسه، واصغى الى اعمق ما في نفسه: عند ذاك عرف الله.

. . .

اسطورة هذه:

ولكن رب اسطورة عبّرت عن اعمق حقائق الوجود!

في صميم الانسان توق الى الله، لا يرتوي الا في احضان الله :

شهادة الانسان، في اعماقه، اليست ابلغ من شهادة العقل في قياساته واستنتاجات حسابه ومنطقه ؟

« لقد خلقتنا لك : وقلبنا لن يهدأ قبل ان يجدك ! » : بهذا الاعتراف، استهل احد قدماء القديسين « اعترافاته »، فكان قوله صدى لانشودة يترنم بها كل قلب، ولو لم يهلل بها كل لسان !

وفي القلب حدس لا يدنو منه العقل، ولا ينطق به اللسان!

هو توق لله، شوهوه وقالوا: « انه هو الذي اوجد الله ! » واضافوا : « ان الله اذن وهم وخرافة، خلقها القلب ليرتاح ويطمئن ! » وقد ضلوا يوم حسبوا ان شهادة قلب، طبعها الله في القلب اذ اوجده، ولهفة قلب جعلها الله جزءاً من كيان القلب، وايمان قلب جعله الله شرطاً ليكون القلب : — ضلوا يوم حسبوا ان هذه صنو للوهم وتوأم للخرافة !

❁

في صميم الانسان توق الى الله لا يرتوي الا في لقيا الله الحقيقي :

واما الآلهة الزائفة، من نار واهواء، واسلاف عشيرة،

وإله طاغوس — اما هذه الآلهة الزائفة فقد انكرها القلب ولو جثت امامها الاجساد، ونبذها القلب ولو لهجت بالتسبيح لها الالسن !

في صميم الانسان توق الى الله الحقيقي :

روح، الانسان في روحه به شبه . . . وقوة، للحب في قوته رمز له ومثال . . . وعطاء، فيض عطاء الحب قبس منه . . . وخير، ما الضمير سوى صوته المتقطع . . . عدل لا يرتشي، وعطف لا يذل امام العدل . . . وحرية، لا تذل لانها لا تكبت الحرية، ولا تفرض نفسها على حرية الانسان، لئلا تتنافى ونفسها اذ تتنافى وطيف الحرية في الانسان ! حرية، تأبى ان يؤمن بها الانسان مكرهاً او مخدوعاً، او جاهلاً : وتأبى الا ان يبلغها من ضمن اكتمال حريته ابلغ اكتمال !

❁

في صميم الانسان توق الى الله الحقيقي . . .

ولكنه — كتوق الانسان الى « الانت »، في الحب — ليست توقاً الى الاطلاع، او التفرج : بل هو توق الى الالتحام واللقيا :

انه الايمان — اعمق من الثقة، واعمق من «الاعتقاد» : انه الايمان، لقيا الانسان في كليته، بالله في حقيقته !

انه الايمان — الحب اقرب الى وصفه من العبودية او العبادة ...

انه الايمان — استسلام القلب والارادة لمشيئة الله. ليس استسلام عبودية هو: بل استسلام مشاركة لله في الخير؛ وثقة الارادة الانسانية بحرية الله، واكتمال حرية الانسان في احضان حرية الله؛ وادراك الانسان ان حرية الله (وهي القدر، وهي القوة تولد التاريخ) هي الخير لا يخبو، ولا يخالطه اثم — هي الحرية وقد اكتملت «حتمية خير»، وتعالت عن ان تكون حرية متبورة قد تقود الى التعسف في شر! استسلام الانسان لارادة الله، حراً، هو اكتمال حرية الانسان في ذراعي الحرية المتعالية عن الحرية — الحرية البالغة «حتمية» النور والعطاء والبركات!

انه الايمان — لقيا الانسان «بالله» دون وسيط، ودون معونة من احد: لقيا الانسان في اعماقه، من صميم لهفته وتوقه — بالله، مصدر اللهفة ومصدر الانسان!

انه الايمان — ايمان شخصي، يتم في الانسان دون وساطة، دون معونة انسان: يتم في الانسان بمجاهدته الشخصية ونضاله الشخصي؛ فلا يُتوارث، ولا يُتناقل، ولا يُستعاض فيه ايمان انسان عن ايمان انسان آخر!

انه الايمان – لقيا الانسان بالله، في المخدع الداخلي، حيث الله جاثم في الانسان، وحيث الوهة الانسان متوثبة للقيا الله! في المخدع الداخلي تتم – في القلب، والنوايا، والضمير – لا في طقوس ونواميس، يستعاض بها عن اللقيا بجوهرها وحقيقتها! وهل يضير الحبيب اي قالب واي طقس يتقيد به حبيبه في البواح بحبه؟

انه الايمان – صلاة! ليست استجداء معونة، وليست مطالبة بثواب: وانما هي لفتة من القلب نحو الله في نفسه، وسفور في القلب – اعتراف صامت في القلب – وتحنان حبيب، وتوق حبيب.

انه الايمان – فيض لقيا ووصال، يبدد الوحشة الكئيبة؛ فيض ثقة واطمئنان، يبدد القلق والمخاوف؛ فيض صفح وغفران، يبدد الشر، ما حصل منه، وما قد يحصل؛ فيض خير، ينير الفؤاد، ويطهر الضمير، ويثير دفيق التحنان والخدمة والعطاء من خزان القلب وقد تطهر وصفا ...

انه الايمان – لقيا الانسان بالله، وتحقيقه للالوهة الراقدة في نفسه، ومشاركته لله في ثرائه ...

الحرية

. . . ومل، حياة الانسان – في فضائله وواجباته وبطولته، في خلقه وإبداعه، في حبه وفي ايمانه – هو مل، الحرية !

الحرية، كالشخصية بكاملها – اعماق النفس وكنوزها – وحدة : تشع في البطولة بلون، فيه ظلال من الوان الزوايا الاخرى كلها – وتفيض في الحب كذلك، وتتعرى في الإبداع، وتتدفق في الايمان ! هي هي : شخصية الانسان : ان اطلت من كوة، فقد اطلت كلاً غير مجزأ – ولو غاب في اشعاعه لون على الالوان الاخرى وفاقها إشعاعا !

❁

والحرية، صفة تلازم الشخصية، وشرط لها : لا يكون الانسان، ان لم يكن حراً !

الحرية في الانسان هي عب، مصيره : مسؤوليته، تلازم «الانا» كلما فاء بها، وكلما وعاها، وكلما حققها، وكلما تعرى طيف من اطياف جلالها، او تجلى من ثرائها كنز !

الحرية هي عبء مصير الانسان : لهفته على « الانا » ، حسّه بالمسؤولية ، مسؤولية نفسه تجاه ضميره ، وتجاه ذلك « المجهم » ، الاكبر من ضميره ، يشعر به قلبه ولو تردد عقله عن ان يدعوه « الله » ! الحرية هي « مسؤولية المصير » ، عبئاً على ضمير الانسان ووعيه — يتهرب منه الانسان فلا يستطيع ، ويتنازل عنه الانسان فلا يلبث ان يدرك ان هذا التنازل لم يخفف عن عاتقه العبء ، بل حمّل عاتقه كابوس التهرب من الاعباء ! الحرية هي مسؤولية الانسان عن نفسه : ومن تهرب منها ، فهو لا بد مدرك ، في برهة يقظة ، انه مسؤول عن تهربه عينه !

❁

والحرية هي فرادة الشخصية وفذوذيتها : هي التي تختار طابع « الانا » ، فتقرر في اختيارها كل ما تختاره « الانا » في ما بعد ! . . . هي التي تجعل « الانا » انا و « الانت » انت ! الحرية هي ، في الشخص ، شخصيته الفريدة : هي شخصيته بعمق تميزها ، وهوة « انويتها » !

❁

والحرية هي شرط كل امتلاء :

ما البطولة ، ان لم تكن حرية الإقدام على المخاطر دون اكراه ؟ وما البطولة ، ان لم تكن ظفراً مستمراً ، في معركة ،

المناضل فيها حريةُ الذل والانهزام؟

ما الخير، ان لم يكن حريةَ الخير، وغلبةً دائمة على اغواء الشر وحريةِ اتّباعه؟

ما الفن، ما الفلسفة، ما الوجود بكامله – ان لم يكن بواحاً حرّاً بحالةٍ كيانيـة حرة؟ وهل تقوم النشوة، او الكآبة المبهجة – امهات الفن والخلق – الا في الحرية؟

ما الحب سوى حرية اللقيا، وحرية الفيض؟

وهل الايمان استسلامُ اكراهٍ لمشيئة الله؟ وهل لله من مشيئة، سوى حريته، التي تأبى ان تُحترَم الا من فيض حرية محترِمها؟ يفرضون المعتقد على الانسان باسم الله، ويفرضون الخير عليه، ويفرضون الطقوس: ولو اخلصوا لله لعلموا ان الله، مصدرَ الحرية، لبعيد، بعيد جداً، عن الانتقاص من قدر الحرية!

●

الحرية هي الانسان:

هي عبء مصيره، هي مصدر فذوذيته، هي شرط المل‍ء في حياته...

هي ثروته الوحيدة التي لا يتنازل عنها، ولا يستطيع!

حر هو الانسان – الا في امر حريتـه! حر هو الانسان، الا في التنازل عن حريته! ولو رضي الاستعباد، فحُرّاً

يرضاه: وفي قدرته على الانتفاض تحت اي نير، وفي إبائه ان يذلّ، ابلغُ شهادةٍ على ان الانسان حر في «حتميّةِ حريةٍ» — حر فلا يكون الّا حراً!

◉

الحرية هي الانسان في الانسان!

ليست الحريةَ من الخارج ما اقصد: بل الحرية في الكينونة الداخلية! الحرية في الإيثار والإثراء والامتلاء: عبر سطوة الخارج — قبل الحرية في التعبير والبواح: وللخارج عليها سطوة وسيطرة!

وليس الحر مَن كان وحسب حراً من سيطرة خارجية: بل الحر مَن ابت حريته الداخلية ان تذل، متى انعدمت حريته الخارجية!

ورب حر في مفاهيم الناس، كان عبداً في وجه نفسه: ورب عبد رسف بالقيود، والقي به في السجون، وقُيِّد لسانُه فلم ينطق، وكُبِّلت يداه فلم يحرك، كان — لولا جلال الحرية التي تأبى الهزء! — كان يهزأ بمستعبديه: وفي ضميره توق للخير لا يذل، وفي نفسه فيض ابداع لا ينقطع، وفي قلبه حب وايمان انّى للقيود ان تدنو من حرمتها، وانّى لعتمة السجن ان تحجب عنها الضياء الداخلي!

◉

. . . ولكن للحرية عبثها، وخطرها، والمنزلق!

فالحرية شرطها ان لا تُحَدَّ، إلا حرة، من تلقاء نفسها!

والحرية طبيعتها، اذن، ان تعصف كالريح حيث تشاء!

ورب حرية نزعت حرة نحو الشر، ولم تصغ لصوت الضمير! ورب حرية زاغت عن النور، واتجهت، حرة، نحو العتمة!

فماذا نقول؟ أنقيدها لنصونها؟ وهل نستطيع؟

وهل، ان نحن قيدناها، ووجهناها، صُنّاها من الخطأ في النزوع، والضلال في الاتجاه الداخلي؟

وهل نصون الحرية بالقضاء على الحرية؟

وهل تكون ثروة الانسان الكبرى، وحارسه الاول، لا تصان الا اذ تُهدَر، ولا تَحرُس الانسان الا اذ تُحرَس!

الحرية عبء، والحرية مغامرة!

ومن شاء تخفيف العبء، فقد نقض جلال المغامرة، وافقر قيمة الانسان والحرية!

الحرية عبء: وكعبء هي تستمر.

ولا ينقذ الحرية سوى الحريه نفسها! ولا يصونها سوى اكتمالها، في احضان الحب والله —

سوى تعاليها الى علياء الحرية الكبرى، باستسلامها في احضانها، لتستقر هناك، مع الله في حتمية الحب والخير والضياء!

الحرية هي الانسان . وكالانسان بكامله، هي ثنائية كِبَر وصِغَر ...

والحرية مغامرة . . . والانسان، بملء حياته، مغامر في مصيره وكيانه !

فما ارهب الانسان !

obeikandl.com

دعوة

هي دعوة منك واليك !
هي نداء الحياة في اعماقك !
فان اعتبرتها صادرة عن سواك ، فلقد
اخطأتَ في فهمها ، وفي تلبيتها ضللتَ !

obeikandl.com

ما ارهبك ايها الانسان !

ما اعمى جلالك! وما ادنى الوهاد التي فيها تقذف بنفسك !

في جلالك كِبَر، فكبرياء، فسقوط !

وفي جهلك بكرامتك لهوٌ، فعدمية، فلا مبالاة !

وفي حريتك — مصدر البطولة فيك والابداع، وشرط الحب فيك والايمان — مغامرة، قد تؤدي بك الى العبودية حرةً مختارة: حقارةً، وعقماً، وانانيةً، وجحوداً !

انسانيتك، بكاملها، على شفير الهاوية: على شفير اللاانسانية !

وليس من يقذف بك فيها سوى انت، انت نفسك ؛ وليس من ينقذك منها سوى انت، انت نفسك !

حريتك، فوق هامتك تتدلى، كالسيف مربوطاً بخيط من نسيج العنكبوت: في كل لحظة قد ينقضّ — فتعصف بك الحرية الى ادنى من مستوى المادة التي فوقها تستوي، وعليها تعتزُّ في خيلاء !

وانسانيتك — ولئن حققتها في ملء ثرائها — في توتّر تقوم، وفي توتّر تستمر !

إقضِ على هذا التوتّر، تقضِ على نفسك ! واهرب منه تهرب منك نفسك ! فما ارهبك ايها الانسان !

وانت، ايها الانسان، امام «دعوة» — دعوة لتكون نفسك:

فان نظرت الى هذه الدعوة كدعوة من سواك، فقد صممت اذناك عن هتافها الحقيقي!

وان لم ينطلق نداء البطولة والابداع والحب والايمان من اعماق حريتك، فنداؤها اليك باطل، وباطلة تلبيتك!

فاصغ في اعماقك جيداً لنداء الاعماق!

وانطلق، ان سمعت النداء — وانه لهاتف في اعماقك حتماً — انطلق، لتعلو، في التوتر وفي المغامرة، على طبيعة ارهبتك اسرارها، لتستقر في احضان إله شوهت صوته الاجيال —

إله يدعوك الى البطولة والابداع والحب والايمان؛

إله استقر في نفسك، كيما تدعوك نفسك الى الارتقاء، ضمن نفسك، اليه!